بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 18 يناير 2016

الدين كتجربة والاعتقاد كإرادة عند وليم جيمس

حمادي أنوار
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الملخص:

باعتباره مؤسس علم النفس التجريبي وأحد رواد الفلسفة البراغماتية، فقد عالج وليام جيمس الدين باعتباره تجربة روحية شخصية ذات أصول سيكولوجية، والتي لها امتدادات أخرى فيزيولوجية كذلك. ومن منطلق هذا الطابع الشخصي للدين، يكون الاعتقاد هو الآخر شخصياً وفردياً يتعلق بحرية وإرادة المُعْتَقِد، دون أن تدخل في ذلك أيّة اعتبارات عقلية ومنطقية، وبعيداً عن النقاشات اللاهوتية والكلامية والفلسفية، التي تحاول إثبات عقلانية الدين والإيمان أو نفيها. كما يرتبط بنوعية الفروض التي يؤسس عليها الإنسان اعتقاده؛ هل هي من الفروض الحية أم الميتة؟ وانطلاقاً من هذا التداخل الحاصل بين نوعية الفروض وطبيعة الاعتقاد، يمكننا أن نستشف روح الفلسفة البراغماتية عند وليام جيمس، وكيف عالج، على ضوئها، الظاهرة الدينية؛ فقد عمل على إخضاع الدين لمحك نفعي عملي يتأسس على الوظيفة التي يؤديها، إذ بغض النظر عن صحته أو لا صحته فالمهم هو المنفعة والفائدة التي يؤديها لصالح المؤمن، والتي يستقيها من الطابع الرهاني الذي يمتاز به، وهو الرهان المحسوم إمّا بالنجاح الأبدي أو بالخسارة المؤقتة؛ حيث لا يمكنه أن يخسر خسارة أبدية. وبهذا فإنّ أهمية تصور وليام جيمس للدين تتجلى في كونه ديناً منفتحاً وإنسانياً، يقوم على مصلحة الإنسان وراحته وطمأنينته، كما يولي أهمية قصوى لإرادته، إنه ليس ديناً متزمتاً منغلقاً قوامه العنف والتطرف والتعصب.

تقديم:

«عندما أقول لكم إنني كتبت كتاباً عن خبرة الناس الدينية، اعتُبِر إجمالاً بمثابة توكيد لحقيقة وجود الله، فربما تبرئون براجماتيتي من تهمة كونها نظاماً إلحادياً».[1]

قليلة هي العبارات والإشارات ـ كهذه ـ التي قد يجدها الباحث في متن **وليام جيمس**، والتي من شأنها أن تتيح له الحسم في موقف وتوجه هذا الفيلسوف والعالم إزاء الدين، ومسألة وجود الإله. فكثيراً ما صرح بأنه، من وجهة نظر براغماتية، يُقرّ بوجود قوة أزلية وخارقة خلقت هذا الكون هي الإله، لكنه يعود للتأكيد على أنّ التدين أو الاعتقاد أو الإيمان ما هو إلا تعبير عن إرادة شخصية لإنسان عاجز يبحث عن حضن يقيه من الشرور التي يشهدها العالم، فيجد الحماية في هذا الأب المهيب، بلغة **سيغموند فرويد**، الذي ليس إلا كذبة نافعة؛ ومن منطلق كونها كذلك فقد أقرّ بصدقها وحقيقتها.

ومن هنا تظهر لنا مدى صعوبة تحديد موقف وليام جيمس من الدين ومن فكرة الألوهية والتأليه، خاصة أنه جمع في تصوره هذا بين ما هو فلسفي وما هو علمي سيكولوجي؛ فجعل التجربة الدينية تابعة للتجربة السيكولوجية، التي، هي الأخرى، ليست إلا امتداداً للتجربة الفيزيائية. وبالتالي تقع النقلة من العالم الطبيعي (الفيزيقي) إلى عالم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا)، إضافة إلى تدعيمه لذلك بمفاهيم أخرى من قلب السيكولوجيا والتحليل النفسي، كما ركز على بعض التجارب الصوفية التي نهل منها مفاهيم أخرى، زادت من اتساع وغنى بحثه في الظاهرة الدينية.

لكن أن يأتي في كتابه «**البراغماتية**» ويقول بصريح العبارة إنّ كتابه الآخر «**أنواع التجربة الدينية**» قد قطع الشك باليقين؛ إذ برأه وبرأ ذمّة مذهبه ككل من تهمة الإلحاد التي لطالما أُلصقت به، وبالمذهب البراغماتي، فهذا يطرح العديد من الإشكالات، ويثير الكثير من الأسئلة حول تصوره للدين، وقد سميناه تصوراً لأنه يجمع بين فلسفة الدين وسيكولوجيا الدين، ويُعدّ من أهمّ وأشهر المواقف في السيكولوجيا الدينية البعيدة عن التحليل النفسي للدين.

إذا كان وليام جيمس قد أكد على أنّ فلسفته البراغماتية بعيدة كلّ البعد عن تهم الإلحاد والنفي التي لازمتها لفترات طويلة، فهل يمكننا القول إنّ كلّ ما جاء به في فلسفة وسيكولوجيا الدين كان فقط للدفاع عن هذه القضية ورسم الحدود الفاصلة بين الإيمان والإلحاد؟ أو بتعبير آخر كيف عالج وليام جيمس الظاهرة الدينية انطلاقاً من توجهه الفلسفي البراغماتي، من جهة، وبناء على تجريبيته الجذرية، من جهة ثانية، ثم أخذاً بمنهجه السيكولوجي التجريبي من جهة أخرى؟

1 جيمس، وليام (2008): «البراجماتية»، ترجمة: محمد علي العريان، تقديم: زكي نجيب محمود. المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص 348

الدين كتجربة إنسانية:

كثيرة هي الميادين العلمية التي تجعل من المنهج التجريبي منهجها الرئيس، ومحكها الأول في الوصول إلى الحقائق العلمية وبناء نظرياتها. وباعتباره طبيباً ومؤسساً لعلم النفس التجريبي **Psychologie Expérimentale**، فقد اعتمد وليام جيمس **William James** (1842- 1910) هذا المنهج في علم وظائف الأعضاء، وكذلك في دراسته للظواهر النفسية، كما انتهجه في مقاربته للظاهرة الدينية. فقد درس الشخصية الإنسانية انطلاقاً من الحياة الروحية والدينية للفرد، وبالضبط من خلال روحه وتجربته الدينيتين، فأورد ذلك في كتابه ''أنواع التجربة الدينية'' **The Varieties of Religious Experience** المنشور سنة 1902.[2]

لطالما شكل الدين، ويشكل، أحد أهم المكونات التي تتحكم في الإنسان، وتؤثر في جوانب عديدة ومهمة من شخصيته وحياته ككل. وتختلف أبعاد الظاهرة الدينية باختلاف الثقافات والمجتمعات، بل باختلاف الأفراد أنفسهم، فالدين كتجربة تظل عبارة عن كل أو مجموع معقد ومتشابك من العواطف والمشاعر التي يصعب إخضاعها لقانون عام؛ لذلك فإنّ من الصعب اختزال كلمة **''دين''** في مبدأ واحد أو ماهية معينة، إنها عبارة عن اسم عام[3] يضم في ثناياه ثلة من المعاني والمفاهيم الأخرى. لكنّ السؤال المطروح، هنا، هو هل دخول غمار التجربة الدينية أمر متاح واختياري لعموم الناس، أي أنه مرتبط بالإرادة والرغبة وحرية الاختيار كما قال وليام جيمس، أم أنّ تجربة الاعتقاد والإيمان هي أعقد وأشكل من أن تُختزل في شعور وعاطفة شخصيين؟

يَعتبر وليام جيمس ـ عملاً بمبدأ **الفعل المنعكس Reflex Action**- أنّ جميع ما ننجزه من أفعال لم ينشأ إلا عن عمل المراكز العصبية عندما تفرغ ما فيها من طاقة، ويكون هذا التفريغ الخارجي ناتجاً عن مؤثرات خارجية جاءت بواسطة أعصابنا الحسية.[4] كما أنّ كل عملية ذهنية يقوم بها الإنسان تحمل انطباعاً داخلياً لحاسة ما، وانطباعاً آخر خارجياً يتمثل في فعل عضلي وحركي معين؛ ومن هذا المنطلق فإنه «يتصور مبدأ التأليه على أنه شخصية توجد خارج شخصيتنا نحن، وترتبط بنا في تجاربنا الدينية، وتطلق قوانا، وتساعدنا على أن نكيف أنفسنا مع العالم بثقة. فمبدأ التأليه يرضي طبائعنا العقلية والعاطفية بطريقة لا يحتمل أن تقوم بها أية نظرية منافسة مثل المذهب المادي، ومذهب وحدة الوجود، أو المذهب اللاأدري.»[5] وهنا يمكننا أن

2 Boutroux, Emille (1911): *«William James»*, Librairie Armand Colin, Paris. P: 53.

3 James, William (2004): «The Varieties of Religious Experience», Routledge Centenary Edition, London and New York. P: 26.

4 James, William (1912): «The Will To Believe And Other Essays In Popular Philosophy»,London, New York, Bombay, And Calcutta: Longmans, Green, And Co. P: 113.

5 كلي رايت، وليم، (2005): "تاريخ الفلسفة الحديثة" ترجمة: محمود سيد أحمد، تقديم ومراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، الطبعة الثانية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. ص 497

نقول إنّ التجربة الدينية هي تجربة شخصية قد يلجها كلّ فرد، وهي عبارة عن قناعة لا تُملى ولا تُفرض بالغصب.

يقول **إميل بوترو Emille Boutroux**: «من الواضح أنه لكي يصبح الدين شكلاً من أشكال الحياة البشرية، فإنّ على الإنسان أن يكون جديراً به.»[6] فلا ينبغي أن نتعاطى مع الدين باعتباره شرطاً أو بعداً سيكولوجياً يؤثر في الشخصية الإنسانية فحسب؛ وإنما يجب البحث فيه لذاته وفي ذاته، وبالضبط على أنه شكل من أشكال الحياة الفردية والواعية التي يشعر معها الإنسان بأنّ تغييراً ما قد طاله بفعل هذه التجربة. بمعنى الخوض في دواخل التجربة الدينية ومكنوناتها، والتركيز على أثرها، وبيان مفعولها، وبهذا يكون الدين عبارة عن «تجربة بالمعنى الإنجليزي لفعل **to experience** الذي لا يعني ملاحظة، من نظرة جافة، لشيء يقع خارجنا، إنه يعني التحقق والإحساس.»[7] أي التجربة الملازمة للفعل والمبادرة، إنها **تجربة معاشة Vécue** بلغة **برغسون**.

التجربة الدينية بين التفاؤل والتشاؤم:

تظهر الأديان ـ حسب وليام جيمس ـ بمظهرين اثنين: الأول خارجي والثاني باطني. ويَعُدّ المظهر الباطني هو الأهم، لأنه لا يعطي قيمة كبيرة للجانب المؤسساتي في الدين، فتاريخ الأديان قد يبين لنا أنّ الدين ظهر في هيئة مؤسسات، لكنّ هذه المؤسسات نفسها تدين في ظهورها إلى مجموعة من العباقرة والأبطال الدينيين. لذلك فإنّ دراسة الدين في بعده الخارجي، ومحاولة إخضاعه للمذهب العقلي بالبرهنة على صحته وصدقه، تظلّ محاولة فاشلة، لأنّ حقيقة هذا الشعور الديني أو العاطفة الدينية، هي في حوزة صاحبها، هو أدرى بها وأعلم بكنهها، «فهي بالنسبة إلى الشخص انفعال فريد، وله أصالة وخصوبة وسعة غريبة، فلا يستطيع أن يتحدث عنه إلا من جرّبه.»[8]

يتحدث جيمس عن شعورين بارزين في حياة الإنسان، واعتبرهما أحد مصادر الشعور الديني، وهما **"التفاؤل"** و**"التشاؤم"** الطبيعيان في الفرد. وقد قسّم الناس، من خلال هذين الشعورين، إلى صنفين: **"المولود مرّة واحدة"** و**"المولود مرّتين"**[9]، واعتبر الصنف الأول متفائلاً يملك نظرة كلها تَطَلُّع وانتشاء إزاء ظروف ومناحي الحياة جميعها، ويعتبرها محكومة بقوى خيرة تسعى لصلاح وسعادة البشرية، حتى وإن بدت لهم بعض معالم الشر، فإنهم يعملون على استئصاله واستخراج الخير منه.

6 Boutroux, Emille (1911): «William James», op. cit, P: 54.

7 Boutroux, Emille (1911): «William James», op. cit, P: 55.

8 بوترو، إميل، (2013): "العلم والدين في الفلسفة المعاصرة"، ترجمة: فؤاد الأهواني. سلسلة "الإنسانيات"، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة. ص 244

9 نفسه، ص 243

أمّا الصنف الثاني، فعَدَّه متشائماً، ينظر إلى الحياة نظرة بؤس وقهر لا مندوحة عنهما، ولا أمل في البرء من دائهما؛ فيتصور العالم من منظار أسود ظلامي، ويعتبر الفشل والخيبة والشر أموراً تلازم الإنسان في كل أطوار حياته. لذلك «يشعر صاحب المزاج المنقبض شعوراً صريحاً بأنّ بهجة الحياة هبة لا يستمتع بها إلا الصفوة المختارة.»[10] ومن ثمة يكون هذا الصنف في حاجة إلى ولادة ثانية حتى يُبعث من جديد.

يتبدّى الدين لدى الشخص المتفائل والمولود مرّة واحدة على شكل انطباع دائم بالنظام والاستقرار والحب والخير والقوة والثقة والأمان، وفي صيغة تفاؤل تلقائي لا يريم. «إنه انفعال بأنّ الأمور تسير على ما يرام في أنفسنا وفي خارج أنفسنا. إنه ليس انفعالاً سلبياً يخلو من الحياة، بل هو شعور بمشاركة في قوة أعظم منا، ورغبة في التعاون مع هذه القوة في أعمال المحبة والتوافق والسلام. إنه على الجملة سمو بالحياة من حيث إنها قوة مبدعة، ومن حيث إنها انسجام وسرور.»[11]

أمّا الشخص المتشائم المحتاج لولادة ثانية، لإحداث طفرة في حياته، وتحقيق السلام والود مع ذاته، فإنّ شعوره الديني يتبدى من خلال مشاعر القلق والسخط وعدم الرضى عن الذات وعن الآخر وعن الأشياء. «وتمتاز الولادة الثانية بانفعال يحول مركز النشاط الشخصي. فبدلاً من أن يقول المرء المولود ثانية ''لا'' لكل ما يحدث له يقول: ''نعم''. وبدلاً من الانطواء على نفسه يمدّ يده إلى غيره في عطف وإخلاص وشعور صادق بالإخاء. ومنذ ذلك الحين يرى الأشياء في ضوء جديد، ويسلك سلوكاً مختلفاً عمّا كان يسلكه بالنسبة لكل الأفعال التي تؤثر فيه. والذين على هذه الشاكلة من الظفر بالخير والانتصار على الشر، ينفسح أمامهم ميدان العمل، وقد يبلغون كمالاً أعظم ممّن استقروا في الطريق منذ الولادة.»[12]

التجربة الدينية من تأليه الإله إلى تأليه الإنسان:

تتنوع التجربة الدينية بتنوع الأفراد، وباختلاف طبائعهم الشخصية والدينية، وكذلك استعداداتهم وميولاتهم ودوافعهم، وبالتغيرات الجذرية التي تطال الإنسان، فجميع هذه الجوانب، وغيرها، هي ما يشكل ماهية وجوهر الظاهرة الدينية، خاصة في بعدها السيكولوجي. ولهذا «لا توجد تجربة دينية قابلة لأن تكون هي نفسها متماثلة ومتشابهة عند سائر الناس، كما هو الشأن بالنسبة للتجربة العلمية.»[13] بل إنّ هناك تنوعاً كبيراً في التجارب الدينية، إذ لا يمكننا الحديث عنها بصيغة المفرد، بل هي متعددة بتعدد الأفراد أنفسهم، وتبعاً لأنماط وأساليب الحياة.

10 بوترو، إميل، (2013): "العلم والدين في الفلسفة المعاصرة"، مرجع سابق، ص 243

11 نفسه، ص 245

12 بوترو، إميل، (2013): "العلم والدين في الفلسفة المعاصرة"، مرجع سابق، ص 245

13 Boutroux, Emille (1911): «William James», op. cit, P: 56.

فرغم هذا الإجماع أو الاتفاق الذي يبدو أنه حاصل حول الدين، والنابع أساساً من إيمان الشعوب والأمم ـ على اختلاف العصور والحقب ـ بأنّ وراء هذا الكون توجد قوة محركة وذكية هي التي تتحكم فيه وهي علة وجوده، ورغم رسوخ هذه الفكرة في أذهان البشر، إلا أنّ هناك فرقاً واضحاً في تمثلهم للإيمان وللشعور الديني، إذ «لا يوجد شعبان من الشعوب، بل لا يكاد يوجد اثنان من بني الإنسان، يتفقان بدقة في مكونات العاطفة الدينية.»[14] فأن يعتقد المرء ويؤمن، ويكون له شعور ديني فهذا شيء، أمّا تحديد طبيعة ومكونات هذا الشعور فذاك شيء آخر.

تلعب التجارب الدينية دوراً رئيساً في صحة وائتلاف الشخصية الإنسانية، فلو أخذنا مشاعر الذنب والخطيئة، والمعاناة الأخلاقية، وتأنيب الضمير... فإنها تخلق انقسامات داخلية وعميقة، وتتسبب في صراعات على مستوى الشخصية بين الجانب الخيّر والشرير، وهو ما يتمخض عنه بعض الأمراض والعلل التي تصيب البنية النفسية للفرد، الذي لن يستعيد عافيته ـ حسب وليام جيمس ـ إلا ببزوغ هذا الجانب الديني في الحياة، الذي يكون أقرب إلى **القداسة La Sainteté** «والذي يُظهر في الإنسان كمالاً فوق بشري ودائماً»[15] يتمظهر من خلال نمط الحياة الجديد الموسوم بميسم روحي، وربما صوفي، يُبحر بالإنسان في حياة هي أقرب إلى حياة الآلهة منها إلى حياة البشر.

كثيرة هي التأثيرات الإيجابية والحيوية التي يُحدثها الدين في حياة الإنسان، إذ يجعله يرتفع ويسمو عمّا قد يصيبه من نواقص وأمراض نابعة من عالم الحس والتجربة. لذلك نجده قد بات يعيش على وعي بوجود علاقات تربطه بعالم آخر فوق بشري، وبقوى مفارقة واعية وعاقلة تتجاوز قدراته الخاصة. «إنه يدرك أنه مادام قد خَبَر هذا الشعور الديني، فإنّ حياته قد تغيرت واتسعت وتمجدت»[16]، وأصبح واثقاً من نجاحه وتفوقه في حياته كلها، وهو ما لم يكن قادراً على ضمانه بمفرده. وهنا يتضح الدور الذي يقوم به «**ما تحت الشعور**»، الذي كان وليام جيمس من الأوائل الذين تحدثوا عن أهميته في جعل الإنسان يعيش تجارب روحانية وعرفانية ودينية، كالخلاص والصفح والمحبة والتكفير عن الذنب وبذل النفس، فكانت هذه أبرز نقطة يلتقي عندها الدين والعلم.[17]

إنّ الشعور الديني والتجربة الدينية يُكَوّنان لدى الإنسان انطباعاً بأنه صار على اتصال بالإله، وأنّ كل الحواجز الحائلة بينهما قد اندثرت. كما أنّ المؤمن يتواصل مع أنماط أخرى من الشعور، مع يقينه التام بعدم قدرته على التمييز بينها جميعاً، أو معرفتها أو فهمها. لذلك نجد أنّ الناس الذين يجمعهم الإيمان بالإله نفسه هم أقرب إلى بعضهم بعضاً، وأكثر انسجاماً وتداخلاً وحبّاً فيما بينهم.

14 الخشت، محمد عثمان: ''الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم''، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (دون تاريخ). ص 9

15 Boutroux, Emille (1911): «William James», op. cit, P: 57.

16 Ibidem.

17 TH. Flournoy (1911): «La Philosophie de William James», publié par l'Association Chrétienne d'Etudiants, Saint-Blais, Foyer Solidariste, Genève. P: 141.

يميز وليام جيمس بين ثلاثة أنواع من التجارب: الفيزيائية والسيكولوجية والدينية، ويربطها بشعور الإنسان وشخصيته. لأنّ الوجود الفيزيائي للفرد يتحكم ويؤثر في ما هو سيكولوجي، والشيء عينه ينطبق على ما هو ديني. إذ يبيّن لنا كيف أنّ ما هو طبيعي فيزيائي، بفعل الارتداد أو التحول، ينسجم مع ما هو فوق طبيعي أو ميتافيزيقي. يقول إميل بوترو، انطلاقاً من هذا المذهب، إنّ هناك «انتقالاً مستمراً من التجربة السيكولوجية إلى التجربة الدينية، كما هو الشأن بالنسبة للانتقال من التجربة الفيزيائية إلى التجربة السيكولوجية.»[18]

وبهذا يمكننا أن نقول إنّ وليام جيمس قد سعى إلى التوفيق بين متطلبات الحياة الأخلاقية والدينية، وبين قواعد العلم وأسس التفكير المنطقي والعقلي محاولاً في الوقت عينه أن يحافظ على الإيمان بالإله، وعلى حرية وإرادة الاعتقاد، وجعل هذا الموقف الديني التأليهي قوياً في وجه أخطار وتهديدات العقل والعلم والتفكير الحر. ويمكننا أن نختصر ونقول إنّه كان يروم «بقاء وجود الإله كموضوع لاعتقاد بسيط، لكنه اعتقاد مبرر بقوة، وأن يكون موضوعاً لإيمان عقلي مُصرَّح به ومشروع.»[19] مع الأخذ في الحسبان أنّ العواطف الدينية هي عبارة عن تجارب موجودة وكائنة، ويمكن تمييزها عن العديد من العواطف الملموسة الأخرى. لكن لا يوجد أساس لافتراض أية عاطفة دينية بسيطة ومجردة، يمكن أن توجد كشعور أو نزوع عقلي يشكل عنصراً منعزلاً قائماً بذاته، وحاضراً في كلّ التجارب الدينية دون استثناء.[20]

الاعتقاد كإرادة واختيار:

«أنا أنكر حق أيّ منطق مزعوم في أن يبطل إيماني.»[21]

يعتبر مقال وليام جيمس المعنون بـ **"إرادة الاعتقاد" The will to believe** بحثاً في البرهنة على العقيدة، وبالضبط تأكيد حرية الإنسان في الاعتقاد، وجعل القضية شخصية تهم الفرد وحده دون غيره. وبالتالي فلا حاجة لإنسانٍ أن يبرر اعتقاده لغيره، فالمسألة ترتبط بالإرادة أكثر مما تتعلق بصحة المعتقدات. فمقاله هذا «يبين أنّ لنا الحق في أن نعتقد في بعض الموضوعات الدينية، على الرغم من أنه قد لا يكون لنا من الأدلة المنطقية ما يكفي لإقناع قوانا العقلية.»[22] أي أنّ الاعتقاد هو علاقة بين المُعتقِد والمُعتقَد فيه، وتتأسس هذه العلاقة على الإرادة الحرة والمشيئة والاختيار الشخصيين.

---

18 Boutroux, Emille (1911): «William James», op. cit, P: 63.

19 TH. Flournoy (1911): «La Philosophie de William James», op. cit, P: 127.

20 James, William (2004): «The Varieties of Religious Experience», op. cit, P: 27.

21 جيمس، وليام (2008): "البراجماتية"، مرجع سابق، ص 344

22 جيمس، وليم: "العقل والدين"، ترجمة: محمود حب الله، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت. (دون تاريخ النشر أو رقم الطبعة). ص 5

يرتبط الاعتقاد بالإصرار على الفعل وإرادته، ويتعلق هذا الفعل بثلة من الاختيارات الحرة التي تقوم على افتراضات معينة، قد تكون قابلة للتحقق فتُسمى فروضاً حيّة، وقد يكون تحققها مستبعداً فتُسمى فروضاً ميتة ومستحيلة، ومنه يكون الاعتقاد أيضاً إمّا ممكناً وصادراً عن فرض مُلزِم وضروري للمعتقِد، أو يكون مستحيلاً غير ضروري وغير واجب، يدخل في نطاق الإمكان والاختيار لا الإلزام والوجوب.

وانطلاقاً من هذه الفروض نجد أنّ جيمس قد ميز بين عقليتين أو طبيعتين بشريتين: الأولى ''**صعبة المراس**''، والثانية ''**لينة**''. وقد وضع العقلية البراغماتية كحد وسط بين الاثنتين؛ باعتبارها عقلية منفتحة وغير متزمتة، لا ترفض أي فرض مادامت له نتائج تعود على الحياة بالنفع والفائدة. وهنا نخص بالذكر فروض وجود قوة سرمدية لا محدودة وكاملة تتحكم في هذا الكون، فهذا الفرض لا يقع موقع القبول لدى أصحاب العقلية الصعبة المراس، الذين يخاطبهم قائلاً: «فإذا كنتم صعاب المراس، أساسياً، فإنّ لجب وصخب وشغب الحقائق الملموسة للطبيعة سيكون كافياً لكم، ولن تحتاجوا إلى دين على الإطلاق.»[23] فحسبهم توجهاتهم وتفسيراتهم وتصوراتهم الخاصة، التي ربما تحقق لهم ما يمكن أن نسميه ''**إشباعاً عقائدياً**'' أو ''**تخمة إيمانية**'' بعيدة عن المفاهيم اللاهوتية والميتافيزيقية.

من خلال هذه الأنواع الثلاثة من العقليات يقسم جيمس الاعتقاد إلى قسمين: الأول يكون نتيجة لطبائعنا الوجدانية والاختيارية، بينما يتمخض القسم الثاني عن مجهوداتنا وقدراتنا العقلية. وقد ركز على القسم الثاني أكثر من سابقه، متسائلاً عن الدور الذي تلعبه الإرادة في الاعتقاد قائلاً: «أليس يبدو محالاً أن نتحدث عن إمكان تعديل آرائنا ومعتقداتنا بمجرد المشيئة والإرادة؟ وهل يمكن لإرادتنا أن تساعد قوتنا التفكيرية على إدراك الصدق أو تكون عقبة في سبيل هذا الإدراك؟»[24] فكثيرة هي الأمور التي قد نغير موقفنا منها، بالقول مثلاً، أو نريدها على غير ما هي عليه، لكن إرادتنا هاته لن تغير من واقعها شيئاً، كما أنها لا تزعزع اعتقادنا ـ داخلياً ـ فيها.

إرادة الاعتقاد كرِهان:

يُذكّرنا ارتباط الاعتقاد بالإرادة، وبتأرجحه بين احتمال التحقق واستبعاد ذلك، بـ«**رِهان باسكال**''، الذي يصور لنا الإنسان على أنه حائر بين وجود الإله أو عدم وجوده، وبالتالي فإنّ عليه أن يراهن على إحدى الإمكانيتين، وهذا الرهان لن يعطي أي اعتبار حقيقي للعقل؛ بل سيراهن على ما يمكن كسبه أو خسرانه. لقد اعتبر **باسكال** أنّ الرهان على وجود الإله سيجعل الإنسان لا يخشى خسارة أي شيء، لأنّ وجوده أو عدم وجوده لن يحتما على المُعتقِد أية خسارة، فإمّا أن يربح إذا ثبت له وجود الإله، أو أنه لن يخسر، أو سيخسر

23 جيمس، وليام (2008): "البراجماتية"، مرجع سابق، ص 349

24 جيمس، وليم: "العقل والدين"، مرجع سابق، ص 8

خسارة عابرة وفانية في حالة تأكد له عدم وجوده. لكن عكس ذلك هو الذي سيقع إذا لم يعتقد فيه وثبت له، بعد ذلك، أنه موجود، حينها سيكون الخسران الأبدي حليفه.

نجد في هذا المثال الباسكالي، حول مشيئة الاعتقاد، أنّ الإرادة قد أخذت منحى آخر يختلف عن ذاك الذي تحدث عنه وليام جيمس. إنه معنى بعيد عن حقيقة الاعتقاد؛ لكونه لم ينبع عن ميل وتوجه أوليين، وبهذا فإنّ «ما قدمه باسكال للإرادة من تخيير لا يكون تخييراً حيّاً»[25] فأهمّ شيء في الإيمان أو الاعتقاد ليس هو الإحساس أو الشعور أو الذكاء أو حتى العقل، وإنما الإرادة. لأنّ المسألة لا تتعلق بنقص الأدلة والبراهين على ما يعتقد المؤمن أنه صحيح وأكيد، بل يهم إرادة واختيار قوة معينة تكون هي موضوع الإيمان، دون أن يكون وجودها مُثبتاً علمياً، من جهة، لكنه غير منفي أو محال، من جهة أخرى.[26] وبهذا يرتبط الاعتقاد بما يريده ويقرره الإنسان وليس بما يراهن على صحته أو كذبه.

يقول وليام جيمس: «إننا في الواقع نجد أنفسنا معتقدين، ولكنا لا نكاد ندرك كيف؟ ولماذا؟»[27] فمسألة الاعتقاد تقوم على عوامل متعددة تختلف من حيث درجة التأثير، إلا أنّ ذلك يرتبط كثيراً بوجود أسباب عقلية مؤسِّسة، تشكل سلطة تتحكم حتى في الفروض التي نبني عليها اختياراتنا، فهذه الأسباب (السلطة) هي التي تجعل فرضاً ما ممكناً وحيّاً، في حين تجعل من آخر ميتاً وغير ممكن.

إرادة الاعتقاد وإرادة الإلحاد:

إنّ الأسباب التي تجعل المعتقِد يعتقد تبدو واضحة وجلية في نظره، لكن ليس كاستيضاحها عند من لا يؤمن ولا يعتقد، وربما تكون لهذا الأخير أسباب أخرى تبرّر عدم اعتقاده، على أنها تحتل في نفسه وعقله المكانة ذاتها التي تحتلها أسباب الاعتقاد في نفس وعقل المعتقِد. لهذا «فليست البصيرة هي التي تدفعنا للاعتقاد، ولكن التعصب للآراء هو الذي ينمي هذه الأشياء ويغذيها، وهو الذي يضيء ما كان مظلماً من خزائن اعتقاداتنا»[28] فلطالما شكل التقليد والتبعية والانتماء دوافع قوية، لدى الكثير من الناس، للإيمان ببعض المذاهب وتبني معتقدات وأفكار دون غيرها. حتى أننا قد نجد بعض الأفراد يؤمنون فقط من أجل الإيمان، إنهم، بتعبير آخر، **يؤمنون بالإيمان ويعتقدون في الاعتقاد**، دون أن تكون لديهم أية أدلة أو براهين عقلية، ولا حتى دوافع عملية، يبررون بها اعتقادهم وإيمانهم.

25 نفسه، ص 10

26 TH. Flournoy (1911): « La Philosophie de William James », op. cit, P: 164.

27 جيمس، وليم: "العقل والدين"، مرجع سابق، ص 13

28 نفسه، ص 14

فإرادة الاعتقاد هي عبارة عن خيار ضمن مجموعة من الخيارات المتاحة، الصادرة عن ثلة من الفروض، منها ما هو حي وما هو ميت. إنها إرادة غير خاضعة للأدلة العقلية وحدها فقط، فهناك اعتبارات أخرى اجتماعية ونفسية...، وعملية بالدرجة الأولى، هي التي ترجح كفة إرادة ما على حساب إرادة أخرى. وربما نجد أنّ الدوافع التي جعلت مؤمناً ما يعتقد في عقيدة معينة هي نفسها الدوافع التي جعلت آخر ينكرها وينفيها؛ فتكون إرادة الاعتقاد وإرادة الإلحاد في الدرجة نفسها. وبهذا فإنّ «المنطق والتفكير الخالص، على الرغم مما يمكن أن يوجدا من الناحية النظرية، ليسا الشيئين الوحيدين اللذين يوجِدان في الواقع اعتقاداتنا.»[29] وبلغة وليام جيمس يمكننا أن نقول إنّ إرادة الإلحاد هي اختيار نابع من فرض ميت بالنسبة للمؤمن، إلا أنه حي في نظر الملحد. أمّا إرادة الاعتقاد فهي اختيار مردّه إلى فرض ميت من منظور الملحد، لكنه حي لدى المؤمن.

كثيراً ما يفسر بعض الملاحدة إيمان واعتقاد المؤمنين بأنه مجرد حاجة نفسية تدفع الإنسان إلى الاعتقاد في أمور غيبية، آملاً أن تؤمّن له بعض الطمأنينة، وشيئاً من السلوى والراحة النفسية، وتغنيه عن حيرة وتيه الشك والبحث. إلا أنّ تقليب الأمر على جوانبه العديدة، والتدقيق فيه من زوايا للنظر مختلفة، قد يوضح لنا كيف أنّ التفسير السيكولوجي، الذي ينهل في الغالب من التحليل النفسي، يَصْدُق حتى على الإلحاد. أي أنّ الملحد، هو الآخر، يصدر عن دوافع نفسية ورغبات داخلية، هي التي أدت به إلى سبيل النفي والإنكار. يقول وليام جيمس: «إنّ كل من يقول ''البقاء بلا عقيدة خير من الاعتقاد في الكاذب''، لا يُظهر بذلك إلا خوفه النفسي وكرهه الشديد لأن يكون مخدوعاً. قد يكون ذلك المرء ناقداً لكثير من رغباته وميوله ولكنه عبد مطيع لهذا الميل ولهذا الخوف.»[30]

إنّ خوف الإنسان من الاعتقاد في أمور كاذبة هو شعور لا مسوّغ له، لأنّ الاعتقاد في الأصل يجعل المرء يتيه بين مجموعة من الأسئلة والأفكار التي تختلج في ذهنه، راسمة له مسارين أو خيارين: إمّا أن يكون اعتقاده كاذباً أو أن يكون صادقاً. إلا أنّ الإنسان لا يقف هنا موقف باحث عن الحقيقة أو موجِد لها، ومن ثمّة ينتقل إلى التنقيب عن حقائق أخرى، فالأمر ليس مُلزماً له إلى هذه الدرجة. إنه مجرد مؤرخ لإمكان العديد من الحقائق التي تنبع من فروض ميتة، لا تُحتّم على الإنسان أن يتسرّع في الحكم عليها والفصل فيها، ثم الانتقال لغيرها. وبهذا «لم يكن هناك مبرر للخوف من أن يكون المرء مخدوعاً في اعتقاده [...] فالتخييرات في هذه المسائل وأمثالها تخييرات غير خطيرة الشأن، ولا تكاد تكون فروضها حية».[31]

29 جيمس، وليم: "العقل والدين"، مرجع سابق، ص ص 15-16

30 نفسه، ص ص 22-23

31 جيمس، وليم: "العقل والدين"، مرجع سابق، ص 24

الإله والتأليه من منظور براغماتي:

إنّ التفكير العقلي والمنطقي الخالص في الاعتقاد والإيمان لا شكّ أنه سيؤدي بصاحبه إلى تعليق الحكم، والاستمرار في البحث والتساؤل. ونحن إذ نقول إنّه تفكير عقلي صرف، فذلك لنميزه عن باقي أنماط التفكير الأخرى، خاصة ما يرتبط بالعلم، فكما هو معلوم أنّ الموضوعية لطالما كانت غائبة ومُغيَّبة في العديد من النظريات والتفسيرات العلمية، وأكثر منها في حقل اللاهوت والدين. لهذا يصعب اتباع أيّ مذهب والتسليم بأحقيته؛ نظراً لعدم قدرته على التخلص من الرغبات الشخصية والميول الفردية والطبائع الوجدانية، وكثيرة هي الاعتبارات الأخرى التي تكون هي الفيصل، فتحتل المكانة التي من المفترض أن يكون العقل حاكمها الأول والأخير. وهنا يصدق طرح باسكال الذي أكد فيه ما معناه أنّ للقلب ميولاً واتجاهات لا يقوى العقل على إدراك أسبابها وبواعثها.

وفي هذا الإطار نجد جيمس يعتبر مسألة وجود الإله من المسائل العويصة التي لا يقدر العقل والمنطق على حسم القول فيها، فلا أدلة عليها سواء بالنفي أو بالإثبات. ومع ذلك فإنه يرفض موقف اللاأدريين والشكاكين، مؤكداً على حق الإنسان في أن يؤمن بوجود الإله رغم انتفاء الأدلة العقلية والبراهين المنطقية على ذلك، وحسبه فقط رغبته ووجدانه وعاطفته. أي أنّ المؤمن يؤمن بالإرادة فقط، فتكون إرادة الاعتقاد في وجود الإله هي المبرر الكافي، والدليل على صحة هذا الوجود. ونستنتج من ذلك أنّ وليام جيمس يرفض وجود حد وسط بين الاعتقاد واللااعتقاد، فهو ضد الحياد في الدين، ويتضح ذلك من قوله إنّ «أي شخص يتظاهر بأنه محايد إنما يدمغ نفسه هنا بالحمق والتمويه الكاذب والتدليس.»[32]

يجعل وليام جيمس من الاعتقاد مرحلة سابقة على التدليل على ما نعتقد فيه، فهو يؤكد أنّ الفعل لا يتحقق إلا إذا كان مسبوقاً بعقيدة أنه سيتحقق، أمّا إذا كان تالياً لريب وشك وتردد؛ فإنّ تحقيقه سيكون مستعصياً ومحالاً. والشيء عينه ينطبق على المعتقدات الدينية التي علينا أن نتعامل معها على أنها مشروع نراهن عليه، وأملنا كبير في نجاحه، على أنّ هامش الفشل والخسارة مُستبعد جداً، كما جاء في الرهان الباسكالي.

للبحث في علاقة المعتقِد بالوجود، أو بتعبير آخر وجود المعتقَد فيه، يمكننا أن نتساءل: إذا كان العلم يهتم بما هو موجود وقابل للإدراك والتجريب، والأخلاق تُعنى بما من شأنه أو حقه أن يوجد، فما موضوع العقائد الدينية؟

يُعنى الدين، حسب جيمس، بشيئين جوهريين: أولاً: أنّ خير الموجودات هو أكثرها أبدية، وأعمها مدلولاً، وأطولها بقاء. وثانياً: من الخير لنا، في حياتنا هذه وفي الحيوات الأخرى، أن نؤمن بصدق القضية

32 جيمس، وليام (2008): "البراجماتية"، مرجع سابق، ص 332

الأولى، القائلة بوجود قوة كاملة وسرمدية، هي الأصل في نشوء الكون، وهي موضوع المعتقدات الدينية[33]. وبهذا يكون الدين فرضاً حياً ممكن الوقوع، وكلّ من عدّه مستحيلاً وميتاً، فهذا الحديث لا يعنيه أصلاً في شيء.

يعتمد جيمس في تصوره للإله على تلك الفكرة البراغماتية الشهيرة القائلة إنّ الإله **"كذبة نافعة"**، ما يعني أيضاً أنّ الدين هو الآخر كذبة نافعة، «فالدين نافع وهو في بعض الأحوال ممّا لا يمكن استبدال غيره به. فماذا يجب أن نطلب أكثر من ذلك لنقول إنّه حق؟ فإذا كانت الحقيقة هي في نهاية الأمر ما هو موجود وما يبقى ويولد، فالدين حق، كما أنّ الاعتقاد في وجود الكائنات وفي القوى الطبيعية حق.»[34]

إنّ الإله، وفق هذا المنظور، هو إله مختلف عن التصور المُشاع للألوهية؛ إنه مجردٌ من صفة اللاتناهي، ومن كلّ الخصائص والشمائل الأخرى التي تُعلي من شأنه، وترفعه إلى برجه العاجي. إنه تصور ضد التأليه غير المُقيِّد للإله، والذي يجعل منه ذا إرادة وقوة غير محدودتين، لأنّ تصوير الإله على هذا النحو يجعل التفكير في وجوده، أخلاقياً، أمراً مستحيلاً. ومردّ ذلك إلى أنّ عالماً مليئاً بالشرور والحروب والعنف والجرائم...، كهذا الذي نعيش فيه، هو أدعى إلى الاشمئزاز والكراهية والنفور، وبالتالي فلا معنى لخلقه من لدن إله بتلك الصفات والشيم.

لكن بالرغم من ذلك، فوليام جيمس ـ وهو ما يجعل موقفه من الإله وطبيعته مشوباً بكثير من الغموض والإبهام، إن لم يكن تلاعباً في بعض الأحايين- يعتبر أنّ العالم صادر عن خالق ومصمم مبدع وذكي، يتحكم في الكون ويُسيّره وفق خطة معينة. وفي ما يخص العناية الإلهية بالكون، فإنه يعتبر أنّ للناس كامل الإرادة والحرية في فعل ما يريدون، وكلّ فرد له أن يبحث عن خلاصه بالطريقة التي تُرضيه. «أمّا العالم فمُنظم تنظيماً خاصاً لمقتضى العقل بحيث يتكفل بالباقي.»[35] فلا سبيل إلى خلاص العالم لو أنه يقبع تحت رحمة وتصرف الإنسان وحده. «إننا تواقون فعلاً وحقاً إلى خفض قلق الكون إلى الحد الأدنى، ونحن نستشعر التعاسة وينبغي لنا أن نستشعرها، عندما نعتبر الكون كشيء معرض لكل عدو ومباح لكل تيار مدمر للحياة.»[36] وهنا بالضبط تظهر الحاجة الملحّة إلى وضع الثقة في قوة مفارقة، والاعتقاد فيها، والتسليم بعنايتها وتخطيطها لمصير هذا الكون، والاطلاع على جميع حيثياته. «إننا نريد كوناً حيث نستطيع أن نستسلم ونقنط ونيأس ثم نرتمي في أحضان أبينا»[37] الذي هو الإله، فيكون، بذلك، الاعتقاد فيه صحيحاً ولو بمنطق براغماتي صرف.

---

33 جيمس، وليم: "العقل والدين"، مرجع سابق، ص ص 29-30

34 بوترو، إميل، (2013): "العلم والدين في الفلسفة المعاصرة"، مرجع سابق، ص 248

35 جيمس، وليام (2008): "البراجماتية"، مرجع سابق، ص 337

36 نفسه، ص 332

37 نفسه، ص 339

لقد لاحظنا كيف أنّ جيمس لا يكاد يستقر على موقف محدد حول طبيعة الإله؛ هل هو واحد أم متعدد؟ هل هو قوي وفعال لما يريد أم أنه عاجز؟ هل هو خير أم شرير؟ فكلّ هذه الصفات وغيرها لطالما كان يتلاعب بها دون أن يبدي موقفاً واضحاً، إلا أنه مع ذلك كان يفترض «أنّ هناك آلهة متعددة في الكون، بدلاً من إله واحد فقط. وقد أدى به وجود الشر في العالم، كما أدى بجون ستيوارت مل أيضاً، إلى الإقرار بأنّ الله محدود القوة، وأنّ له محيطاً خارجياً، وأنه متناهٍ في القوة أو في المعرفة، أو فيهما معاً. ومع ذلك يوجد الله كما يرى جيمس في العالم بمعنى واقعي، أي أنه يوجد مستقلاً عنا مع أنه يكون مألوفاً لنا ولمثلنا العليا.»[38] ويرى جيمس أنّ الإنسان قد يتعاون مع الله ويطيعه، ويبدي له الخضوع والاحترام والإخلاص، كما يساعده في تنفيذ أغراضه وأهدافه الكثيرة. لكن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد علاقة كتلك التي تقوم بين الأب وابنه، بين المدرس وتلاميذه، وبين الضابط وجنوده... إلخ.

الاعتقاد كإرادة قلبية والدين كتجربة براغماتية:

يقول وليام جيمس: «لا شك أنّ الدين يقدم نفسه لنا، أولاً، على أنه أمر خطير الشأن، لأنه افترض أننا سنجني من وراء اتباعه خيراً كثيراً نحتاج إليه في حياتنا، وسنخسر بالإعراض عنه ذلك الخير الحيوي. ويقدم الدين نفسه ثانياً على أنه تخيير ملزم ضروري، لأنّ ذلك الخير الحيوي مرتبط به ومتوقف عليه. فلا يمكننا أن نتخلص من المشكلة ببقائنا في حالة شك وتردد مرتقبين اليوم الذي تأتي فيه أدلة أكثر وضوحاً وأقوى إلزاماً»[39] فالمشكك أو اللاأدري الذي يظن أنه بالتزامه الحياد فإنه يتفادى الاختيار هو، في الحقيقة، في قلب الاختيار، لكنه اختيار مشوب ببعض المغامرة والمخاطرة، شأنه في ذلك كشأن شخص رفض وظيفة لأنه لا يملك الأدلة المسبقة على أنها ستناسبه وستحسّن من وضعيته، وهو بذلك يباعد بينه وبين تلك الوظيفة.

فكذلك رافض الاعتقاد، إنه يفضل أن يغامر بعدم الوصول إلى الحقيقة على أن يعتقد في قضية خاطئة. فإذا كان المعتقد يخاطر بكل شيء من أجل فروضه الدينية، وأمله أن تكون حقيقية وحية؛ فإنّ رافض الاعتقاد يخاطر بالفروض الدينية من أجل مخاوفه وشكوكه. «فالقول إنّ الشك في الفروض الدينية هو واجبنا حتى نكتشف براهين كافية تثبت صحتها، هو بمثابة القول إنّ الاستجابة لمخاوفنا من كون الفروض الدينية خطأ أولى وأحكم من الاستجابة لآمالنا في صحتها. فليست المسألة، إذن، مسألة القوة العاقلة ضد الميول، ولكنها القوة العاقلة مع أحد الميول ضدها مع ميل آخر.»[40]

38 كلي رايت، وليم، (2005): "تاريخ الفلسفة الحديثة"، مرجع سابق، ص 498

39 جيمس، وليم: "العقل والدين"، مرجع سابق، ص 30

40 نفسه، ص 31

إنّ التفسير الذي يعتمده وليام جيمس في تبرير التجارب الدينية يجمع بين روح فلسفته البراغماتية وبين تجريبيته الجذرية؛ فنجده يعتبر الإنسان كائناً متديناً له تجارب دينية استقاها من شعوره بوجود تجربة أخرى أقوى منه، تتجاوزه وتفوق قدراته، وتملك العديد من الصفات والخصائص التي تعوزه هو، ولا يتمتع بالكثير منها، فقرر الاحتماء بها والارتماء في أحضانها.

وتختلف هذه التجربة عن التجارب الأخرى ذات الطابع الحسي، بل تتجاوزها وتحتويها، لكنها تظل تجربة تندرج ضمن التجريبية الجذرية **Radical Empiricism** التي ترتبط بالفعل والعمل.[41] ومن منظور أنها تجربة فلا بدّ من تفسيرها على ضوء المنهج ذاته الذي فسر به جيمس باقي التجارب؛ أي معيار المنفعة أو الفائدة التي تعود بها على المتدين أو المعتقد. وهنا نجده يقول: «إذا كان الدين حقاً، ولم تكن براهينه كافية، فإنني لا أرغب أن أضيع الفرصة الوحيدة التي قد تجعلني في الجانب المنتصر، وتعتمد تلك الفرصة طبعاً على رغبتي في المخاطرة وفي العمل على افتراض أنّ ميولي النفسية التي تنظر إلى العالم نظرة دينية ميول ملهمة وحقة.»[42] ويقول أيضاً: «وعلى الأسس البراغماتية، إذا كان فرض الله يعمل إكفاء ورضى في أوسع معاني الكلمة، فهو فرض صحيح.»[43]

إنّ تدين الإنسان واعتقاده في إله ما، لا ينبغي له أن يحط من قيمته وكرامته، ويجعل منه كائناً خاملاً منعدم الفاعلية والفعالية. بل عليه أن يحافظ على استقلاله الذاتي وحريته الشخصية، ويشعر بقدرته على الفعل والعطاء، وأن يواجه النداء الديني بإرادته الحرة مهما غابت الأدلة الملموسة على حقيقته. فعلى المرء أن يكون مبادراً ومقبلاً على الدين، بدل أن يظل قابعاً في أسئلته وشكوكه، التي لن يتمخض عنها سوى الضياع والتيه. فكلّ شخص «يحاول أن يجعل الإله يستخرج منه إن بالكره وإن بالرضى، اعترافاً منه به، وإلا لم يعترف به أبداً، فإنه قد يضيع بذلك فرصته الوحيدة التي يمكن أن يتعرف بها الإله.»[44] هنا، بالضبط، على الإنسان أن يترك جانباً خطاب العقل، ويتبنى لغة القلب كما قال باسكال؛ أي لغة الوجدان والعاطفة، والإرادة الحرة كما عبر عنها جيمس بالقول: «إنّ العقل الخالص مع رفضه الاعتقاد يكون خرقاً محضاً، ويصبح تدخل بعض طبائعنا الوجدانية ضرورياً وحاجة يدعو إليها المنطق. ولذلك لا أجد ما يدعوني إلى قبول طريقة الشك في البحث عن الحقيقة، ولست أوافق على عدم إشراك الإرادة في هذا الموضوع.»[45]

---

41 James, M. Nelson (2009): « Psychology, Religion, and Spirituality », Springer science + Business Media, LLC, New York. P: 118.

42 جيمس، وليم: "العقل والدين"، مرجع سابق، ص 31

43 جيمس، وليام (2008): "البراجماتية"، مرجع سابق، ص 347

44 جيمس، وليم: "العقل والدين"، مرجع سابق، ص 32

45 نفسه.

على سبيل الختم

تعتبر مسألة وجود الإله، وحقيقة الإيمان، من أكثر المسائل تعقيداً وإشكالاً، وإثارة للمزيد من القضايا الأخرى، التي تتشعب وتتداخل فيما بينها لتعود في الختام إلى نقطة البداية؛ ومرد هذا ليس إلى عقم المناهج أو أنماط التفكير والبحث، بل إنّ طبيعة الموضوع هي التي تجعل الخائض فيه كمن يغرق في بحر بلا سواحل. وما النقاشات الفلسفية واللاهوتية والكلامية التي ميزت تاريخ الفكر البشري إلا دليل على صحة هذا القول.

فقد صور لنا التاريخ مدى أهمية وحساسية هذا النقاش، الذي لا نظن أنّ إنساناً عاقلاً قد سلِم من البحث فيه والتساؤل حوله، فمِن مؤمن مسَلّم وموقن، إلى ملحد نافٍ ومنكر، مروراً بلا أدريٍّ وشكاك. لنخلص في الأخير إلى ضرورة تعليق الحكم، واستمرار البحث، إلى أن يجدَّ جديد آخر، غير هذا الذي توصل إليه المؤمن بقلبه، ولا ذاك الذي يدعي الملحد ـ ظناً وتوهماً منه ـ أنه خَلُص إليه بعقله.

وبين تعدّد الرؤى واختلاف وجهات النظر، نجد هذا التصور البراغماتي لوليام جيمس، الذي لا يكاد يخلو من نزعة سوفسطائية، بعيداً عن البحث العقلي والمنطقي في مسألة الاعتقاد، وذلك إيماناً منه بأنه لا العقل ولا المنطق سيسعفان المرء في تبرير إيمانه أو إلحاده. فقَصَر الأمر، بذلك، على مجرد التعنت والمكابرة النابعين من إرادة الإنسان ومشيئته الخاصة، فالملحد ينفي بمشيئته كما أنّ المعتقد يؤمن بإرادته، في حين يبقي العقل براء من كلا التوجهين. وفوق كلّ ذلك، هناك مصالح ومنافع لو ثبت لِتَوَجُّهٍ ما أنه يخدمها فهو الأحق والأجدر بأن يُعتقد فيه، ومادام الإيمان ـ حسب وليام جيمس- هو القادر على توفير الطمأنينة والراحة النفسيتين، وأن يضمن انسجام وتعاضد الناس فيما بينهم، ويشكل منبعاً خصباً للأخلاق العامة، وللقوانين والعادات والأعراف، فإنه الأجدر والأحق بأن يُعتقد فيه، وهو الأصح براغماتياً.

لكن، هل المنطق البراغماتي كافٍ، وحده، للجزم في حقيقة الإيمان؟ ولو افترضناه كذلك، فهل هذا الفرض يندرج في عداد الفروض الميتة أم الحية؟ فلو كان فرضاً ميتاً لكفانا عناء اتباعه والاحتكام إليه، أمّا إذا كان فرضاً حياً مُلزماً، فإنه يتعارض مع روح هذا المنطق البراغماتي العملي، المميّز للعقلية اللينة والمنفتحة ـ ضداً على العقلية الصعبة المراس-. ذلك أنّ كل فرض حي هو ملزم لصاحبه، ولو كان ما هو نافع لي هو مُلزِم لي في الآن ذاته، فإنه ليس، بالضرورة، كذلك بالنسبة لغيري. وبالتالي سيكون الفرض الحي، بالنسبة لي، ميتاً في نظر غيري. وهنا نجد هذا التعارض بين ما جاء به وليام جيمس في تقسيمه للفروض إلى حية وميتة، وتخصيص كلّ نوع بثلة من الخصائص والمميزات، وبين روح فلسفته ومنطقه البراغماتيين.

بيبليوغرافيا:

أولاً: العربية

- بوترو، إميل، (2013): **''العلم والدين في الفلسفة المعاصرة''**، ترجمة: فؤاد الأهواني. سلسلة ''الإنسانيات''، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.
- جيمس، وليم (2008): **''البراجماتية''**، ترجمة: محمد علي العريان، تقديم: زكي نجيب محمود. المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- جيمس، وليم: **''العقل والدين''**، ترجمة: محمود حب الله، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان بيروت. (دون تاريخ النشر أو رقم الطبعة).
- الخشت، محمد عثمان: **''الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم''**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (دون تاريخ).
- كلي رايت، وليم، (2005): **''تاريخ الفلسفة الحديثة''** ترجمة: محمود سيد أحمد، تقديم ومراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، الطبعة الثانية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

ثانياً: غير العربية

- Boutroux, Emille (1911): **«William James»**, Librairie Armand Colin, Paris.
- James, M. Nelson (2009): **«Psychology, Religion, and Spirituality»**, Springer science + Business Media, LLC, New York.
- James, William (1912): **«The Will To Believe And Other Essays In Popular Philosophy»**, London, New York, Bombay, And Calcutta: Longmans, Green, And Co.
- James, William (2004): **«The Varieties of Religious Experience»**, Routledge Centenary Edition, London and New York.
- TH. Flournoy (1911): **«La Philosophie de William James»**, publié par l'Association Chrétienne d'Etudiants, Saint-Blais, Foyer Solidariste, Genève.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016